الفصل الثالث

النشـــــــر

على الرغم من هدوء داروين المتزن، إلا أن كتابه قد وُلد بالفعل في خضم أزمة، وكثيراً ما سُردت هذه القصة، فقد ظل داروين Darwin ولمدة تزيد عن العامين يؤلف بعناية مخطوطاً طويلاً كتاباً كبيراً كان يخطط لتسميته بـ «الانتقاء الطبيعي» لم يكن أحد يعرف ما يقوم به داروين إلا قلة من أصدقائه، على الرغم من أن شبكة مراسليه كانت تجوب العالم لتشبع نهمه للتحري عن الحقائق والذي لم يكن له حدود، وفى صباح يوم من أيام شهر يونيو لعام 1858، تلقى داروين طرداً رقيقاً ملفوفاً بعناية، فتساءل من الذي يمكن أن يراسله من تيرنيت ـ وهي إحدى جزر الهند الشرقية الهولندية بين جزيرة سيليبيس وغينيا الجديدة ـ كان يتمنى لو كان بهذا الطرد بعض الأخبار عن الأنواع الغريبة، لكنه وجد بداخل الطرد مقالا قصيراً مكتوباً بخط يد عالم التاريخ الطبيعي «ألفريد روسل والاس Alfred Russel Wallace» الذي وضع فيه تصوره عن فكرة التطور عن طريق الانتقاء الطبيعي، ولم يُعرف مطلقاً التاريخ الفعلي لوصول ذلك المقال على وجه التحديد، ولكن في وقت متأخر من مساء الثامن عشر من شهر يونيو 1858، كتب داروين إلى «ليل Lyell» يُعرب له عن مدى اليأس الذي ألم به لكونه لم يكن

الشخص السباق في هذا المجال. لم أر تزامناً مدهشاً كهذا.... لو أن «والاس» كان لديه مسوّدة مدونتي التي كتبتها في 1842، لما توصل لخلاصة قصيرة أفضل من تلك!.

كان داروين مندهشاً بشده لتوصل شخص آخر إلى نفس النظرية، لذا فقد استشار أقرب أصدقائه إليه ـ وهما ليل و هوكرHooker ـ عما ينبغي أن يفعله في المرحلة المقبلة، كان ميثاق الشرف العلمي والنبل يستوجبان أن يتنحى داروين تاركاً لوالاس التقدير والثناء، غير أن «ليل وهوكر» شعرا بأنه على داروين ألا يفرط في حقه باعتباره واضع لتلك النظرية، فقد كانا على علم بالمخطوطة الطويلة التي كان يعمل فيها، وأصرّا على أنه لا يزال هناك مجالٌ للمناورة؛ ولهذا فقد اقترحا أنه ينبغي عليهم إرسال مقالة «والاس» للنشر جنباً إلى جَنْب مع وصف قصير لنتائج أعمال داروين، ومن ثم يصبح هناك إعلانٌ مزدوج للنظرية وتصبح الأسبقية لكليهما معاً، وافق داروين على ذلك والشك يساوره قائلاً: «لا أستطيع أن أقول إذا ما كان النشر في هذه الفترة سيكون نوعاً من الدناءة والخسة، حيث كان هذا هو انطباعي الأول، وبالتأكيد كان ينبغي علىّ أن أعمل طبقاً له، لولا خطابك»[1].

تم هذا الإعلان المزدوج على النحو المقترح في الأول من يوليو عام 1858 أثناء اجتماع لجمعية لينيان بلندن، وهي الجمعية العلمية الرائدة في مجال التاريخ الطبيعي في بريطانيا العظمى، وكما حدث، فإن ليل وهوكر كانا من ذوي النفوذ في إدارة الجمعية، فتمكنا من التعجيل

(1) مراسلات، 1985، مجلد 7، ص 118.

بإدراج البحث المزدوج في جدول أعمال اجتماع غير عادي في نهاية الموسم، وتم تعديل موعد هذا الاجتماع بسبب وفاة عالم النبات والرئيس السابق للجمعية «روبرت براون Robert Brown».

ثار بعض الهياج بين جمهور الحاضرين القليل عندما قام سكرتير الجمعية بقراءة البحثين عليهم وهو الأمر الغريب إذا أخذنا في الاعتبار محتوى البحثين، وذلك على الرغم من إدراك الكثيرين لأثر كلا البحثين عندما نشرا في مجلة الجمعية بعد ذلك ببضعة أشهر، لم يكن «والاس Wallace» ولا «داروين» متواجدَين في هذا الاجتماع لجمعية لينيان، حيث كان الابن العاشر لداروين، الذي كان لا يزال رضيعاً، مريضاً بمرض خطير إثر إصابته بالحمى القرمزية، ومات في الثامن والعشرين من شهر يونيو 1858، أي قبل يومين فقط من هذا الإعلان، وكأبٍ عطوف مُحب، شعر داروين بحزن شديد حال دون حضوره؛ أما والاس فكان موجوداً في الشرق الأقصى حيث تبعد أميال وأميال عن الاجتماع، وبالتأكيد، لم يكن على علم بالأمر برمته، ومع استغراق وصول الخدمات البريدية ثلاثة أو أربعة أشهر للوصول للجانب الآخر من العالم، كان على والاس أن يتسلم خطاباً يخبره بأن مقاله كان مطابقاً لمقال شخص آخر وأنهما نشرا المقالين معاً، وقد ذُهل عندما وقف على حقيقة الأمر، وبطبيعته اللطيفة والدمثة، كتب على الفور لداروين والآخرين يخبرهم بأنه يعتقد أن ترتيبات النشر كانت مرضية تماماً، وعلى الرغم من أن كُتَّاب السيَر عادةً ما يصفون داروين بأنه كان كريماً ونبيلاً في هذا الموقف، إلا أن السماحة

الحقيقية كانت بالطبع من جانب والاس، الذي أثار كل هذا الاضطراب عن غير قصد، وقد تساءل المؤرخون كثيراً عما إذا كان والاس قد وقع تحت ظلم أو استغلال بسبب الترتيبات التي أعدها ليل وهوكر ووافق عليها داروين.

ليس هناك ما يدعو لإخفاء الحقيقة القائمة بأن والاس جاء من مؤخرة السُلم الاجتماعي في العصر الفيكتوري، كان داروين يحقق دخلا غير ثابت من جمع عينات خاصة بالتاريخ الطبيعي، ثم بيعها للمتاحف ولهواة الجمع حيث كان والاس ممن علَّموا أنفسهم بأنفسهم، ولم يكن له ثمة دخل خاص، وقد كانت رحلة الجمع الأولى إلى البرازيل برفقة صديقه عالم الطبيعة «هنري والتر بايتس Henry Walter Bates» لتمشيط الغابات الأمازونية المطيرة بحثاً عن الطيور والحشرات النادرة، ثم بدأ وحده في عام 1853 رحلةً إلى أرخبيل الملايو حيث مكث هناك ثماني سنوات، وتنقل خلالها في نحو 14,000 ميل في المنطقة، وكان احتمال حصوله على بعض طيور جزر الملايو هو الذي أدخله في الأصل إلى دائرة داروين، كما كانا يتراسلان من حين لآخر حول تلك العينات، وعندما لفت ليل انتباه داروين إلى مقالة سابقة لوالاس نشرها في إبريل عام 1856، كتب داروين إلى والاس ليعبر عن إعجابه بتلك المقالة، وذكر له بصورة عابرة عمله الحالي على تعريف أنواع الكائنات وتشكيلاتها، الأمر الذي كان يصب في بؤرة اهتمام علماء الطبيعة في ذلك الوقت، وعلى الأرجح، كان هذا الإبراز المهذب للاهتمام بالأمر هو الذي شجع والاس على إرسال مقالته عن التطور لداروين عام 1858.

كانت ظروف وطموحات والاس الشخصية مختلفة تماماً عن ظروف داروين وطموحاته، ولكن مع ذلك، فقد قرأ والاس العديد من نفس الكتب، وواجه كثيراً من المشكلات البيولوجية ذاتها خلال رحلاته الخارجية، كما تقاسما كثيراً من ظروف البيئة الفيكتورية المتطلعة؛ ولأن والاس قد تأثر بعالم كتاب (الآثار) وما يتضمنه من تطور تدريجي غير منقطع، فقد تبنى وبشغف مبدأ التطور بالتحول، وكان يتمنى لو عثر في جزيرة سومطرة، أو جزيرة بورنيو على دليل يبرهن على أن الجنس البشري قد نشأ أصلاً من القردة العليا الموجودة بالمنطقة، وقد هدته مهارات الملاحظة الدقيقة التي كان يتمتع بها إلى التوفيق بين التوزيع الجغرافي للفراشات في منطقة حوض نهر الأمازون وبين تنوعها، وهي ملاحظة لعبت دوراً في التطور الفكري لوالاس يماثل ذلك الدور الذي لعبته «طيور الشرشور» بجزر غالاباغوس مع داروين، كذلك، قرأ والاس ما كتبه ليل ورأى ـ شأنه شأن داروين ـ أن التغير الجيولوجي التدريجي ربما يدل على تغيرات تدريجية مساوية حدثت للأنواع، كذلك قرأ وصف داروين لرحلة بيجل، وقرأ لمالتوس Malthus وأخذ عنه نفس فكرة البقاء للأفضل، حتى أن والاس مرّ «بلحظة فكر النظريات المالتوسية» شبيهة بومضات الإلهام التي عاشها داروين، وبينما كان والاس يستريح ذات يوم من نوبة برد من حمى الملاريا التي ألمت به وبينما هو يتأمل في التركيبة السكانية للجزر حول بابوا غينيا الجديدة، إذ أدرك فجأة أن سكان «بابوا» تتم إبادتهم تدريجياً بغزوات شعب الملايو، فما كان يراه داروين، كان يراه والاس كذلك، وهو أن كل

شيء في مكانه الطبيعي، وكتب «والاس» موظفاً نفس المفردات التي كان يستخدمها داروين، عن «حرب» في الطبيعة، ومنافسة بين الأفراد وانتصار النوع الأكثر نجاحاً.

لقد شعر داروين ـ بينما هو جالس وحيداً منشغلاً بدارسته ومداوماً كعادته على عمله مركزاً فيما بين يديه من عمل ـ أنه في منأى عن أي خطر من أن يسبقه أحد؛ لذا كان يشعر بأنه لا داعي للعجلة، وظل على هذا المنوال حتى وصله خطاب والاس، ولكن كما ألمح ليل، فإنه بالنظر إلى البيئة المحيطة كان هناك عدد كبير من مؤيدي الخطط الفكرية المتقدمة.

كانت تيارات التغير الكبرى تمضي في طريق ظهورها الفعلي في بريطانيا، وبزغت كتابات لاذعة في نقد الإنجيل، عندما قام علماء الكتاب المقدس في أوروبا بالبحث في النصوص المقدسة كما لو كانت مجرد وثائق تاريخية، ففي أروقة كليات أكسفورد المنعزلة، نجد البابا «بادن باول» ينكر علناً المعجزات، في الوقت الذي تحول فيه «جون هنري نيومان John Henry Newman» إلى الكاثوليكية وأسس مذهب التراكتارية، كما قدمت ترجمة «جورج إليوت Goerge Eliot» لكتاب «حياة المسيح»، 1846 للكاتب «ستراوس Strauss» ابن الرب للقارئ الإنجليزي كما لو كان رجلاً عادياً، كذلك، ادعى مفكرو العصر الفيكتوري ـ واحداً تلو الآخر ـ حق البحث في العالم من حولهم دون الرجوع إلى قوى الرب الخارقة، أو إلى كلمات الإنجيل، أو إلى السلطة العقائدية للكنيسة، وبدأ البعض ـ أمثال تينيسون Tennyson، وماثيو

أرنولد Matthew Arnold ـ بالشك جدياً في النظام الديني الذي نشأوا فيه، وأخيراً تجلت هذه الحركة في مجموعة من صفوة عالَم الأدب والثقافة البريطاني في كتاب بعنوان «مقالات ومراجعات نقدية 1860» والذي اعترض فيه سبعة من علماء اللاهوت البارزين على التفسيرات التقليدية للكتاب المقدس، لقد تفشت في المجتمع شكوك باعثة على القلق ونزعات علمانية، وحالة من عدم الاستياء من المذاهب التقليدية قبل أن يظهر داروين على مسرح الأحداث بأمد طويل.

لقد كان النساء والرجال العاملون بالمجلة الليبرالية المؤثرة «ويست مينيستر ريفيو» التي كان يرأسها المحرر الرائع «جون تشابمان John Chapman» وماري آن إيفانز Marry Ann Evans (الروائية جورج إليوت) ـ على سبيل المثال ـ مبهورين بفكرة القوانين الطبيعية المتأصلة والتقدم المطرد للمجتمع البشرى، كما أشاد بشدة أصدقاؤهما المؤرخ «هنري بوكل Henry Buckle 1821 ـ1862» والفيلسوف «هيربرت سبنسر Herbert Spencer 1820 ـ1903» على التطور في المجتمع والطبيعة، حيث فكر «بوكل» ملياً في تاريخ الأمم وقال لقرائه أن المجتمعات المتقدمة سوف تتغلب دائما على نظائرها الأقل تقدماً، ويحاول «بوكل» من خلال كتبه عن التاريخ ـ والتي تناولت الانتقال من بربرية روما القديمة إلى الديمقراطية البرلمانية التي عاشها العصر الفيكتوري ـ الإقناع بحدوث تحسن تدريجي، أما بالنسبة لكتابات سبنسر، فإن نفس هذه الأفكار جاءت في شكل قانون التطور الذي طبقه على الحيوانات والنباتات بقدر ما كان يطبقه على

علم السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا والمجتمع البشرى، وفى عام 1852 نشر سبنسر «فرضية الارتقاء» حيث أيد نظرية لاماركية عامةً عن تطور الحيوانات بالتحول ثم تبِعها بمقالة يغلب عليها الأسلوب المالتوسي عن «نظرية السكان» والتي نُشرت في مجلة (ويست مينيستر ريفيو) وأكد فيها أن الضغط السكاني يدفع بالأضعف إلى الفناء، ثم تبعها بعد ذلك بفترة قصيرة بمقالته المناهضة للاهوتية «مبادئ علم النفس 1855» وبحلول نهاية العقد، كان داروين قد بدأ عملية إعادة تقييم طموحة استمرت طيلة حياته لعلم ما وراء الطبيعة، والتي نُشر الجزء الأول منها عام 1862، كما اعتقد سبنسر أن التقدم البيولوجي والاجتماعي يُشكلان معاً سلسلة تطورية شاملة ـ حيث أنهما يخضعان لنفس القوانين الثابتة وقوى الطبيعة ذاتها ـ إلا أن داروين لم يأخذ أبداً أياً من كتابات سبنسر مأخذ الجد.

لم يكن سبنسر هو الوحيد الذي يفكر على هذا النحو، فقد كان هناك «جورج هنري لويس Goerge Henry Lewes» المحرر في المجلة الأسبوعية التقدمية «ليدر» والمُسْهِم المداوم في مجلة «ويست مينيستر ريفيو» ورفيق حياة جورج إليوت ـ متبحراً في دراسة علم التشريح وعلم الفسيولوجيا، فاقترح أن الفكر الإنساني ما هو إلا مجرد نتاج ثانوي للنشاط الفسيولوجي للمخ، وليس هبةً من الله، وقد ضرب لويس ـ الذي كان يلقى الدعم من «ويليام بنيامين كاربنتر William Benjamin Carpenter» أحد علماء الفسيولوجيا ـ بالقوى الإلهية عرض الحائط، كما أصابت «هاريت مارتينيو Harriet Martineau» قراءها المتدينين

بالصدمة عندما أعلنت عن شكوكها الدينية كذلك، عقد المؤلف ورجل الدين الثوري «تشارلز كينجسلي Charles Kingsley» ذروة روايته الواقعية الاجتماعية «ألتون لوك1850» بكابوس يراه البطل بأنه قد تحول من قنديل البحر إلى إنسان، كما رفض هؤلاء المفكرون المحدثون اللاهوت الطبيعي، وهو نظام تفسير راسخ في الجامعات القديمة، واختاروا شيئاً أكثر مرونةً وشخصيةً، وهو إله حكم العالم بشكل غير ملحوظ في الظل، والذي لا يحتاج إلى هراء عقيدة الكنيسة.

بحلول عام 1850 تقريباً، بدت فكرة التطور بالتطافر أقل خطراً بالنسبة للمفكرين التقدميين من أمثال هؤلاء، فقد زالت الأجواء الخطيرة والمتقلبة التي سادت الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر بسبب بريق الصناعة وانتشار التجارة في منتصف العصر الفيكتوري، والذي عمل على تنقية هذه الأجواء، وبدا أن التقدم والرخاء هما الفكرتان الرئيسيتان لهذا العصر، فدافع ليبراليو الطبقة المتوسطة عن تحسين الذات، والعلم والتعليم من ناحية، وعن المحاضرات العامة والمتاحف من ناحية أخرى، كما تساءل رجال الطب عن احتمالية حدوث التولد التلقائي لأصغر الكائنات الخلوية، وكذلك ناقشوا تجارب «لويس باستور Louis Pasteur» باهتمام، ثم انتقل «روبرت جرانت Robert Grant أحد معارف داروين القدماء» إلى لندن ليصبح أستاذاً في علم الحيوان في جامعة لندن كوليدج وقد حاضر عن السُّلم التطوري للطبيعة إلى أن منعه كبر السن من المواصلة، كذلك، اعتنق عدد لا بأس به من المفكرين البارزين مبادئ التقدم

الذاتي، والنهوض الاقتصادي، ودفع الحضارة قدماً بشكل أو بآخر، دون أن يعني ذلك بالضرورة تجاوز الخط الفاصل بين الإيمان والكفر، كذا، بدأت أعداد غير معلومة من الشخصيات العامة الأقل شعبية ـ أمثال ألفريد روسل والاس ـ في التأمل في العالم بعين علمانية جديدة، وجاء التقدم التقني والتوسع الاقتصادي الواضحان ليعززا وجهة النظر تلك، ثم جاء كتاب «صمويل سمايلز Samuel Smiles» «مساعدة النفس» الذي كان يعتبر دستور الطبقات المتوسطة الآخذة في الترقي ليبرز الاعتقاد في التحسين بمشروعات الأعمال الخاصة والتي كانت قد بدأت تنتشر في كافة نواحي الحياة في منتصف القرن.

كان لتصادم داروين غير المتوقع مع والاس نتيجة مباشرة واحدة، لقد دفعه ذلك بشدة إلى كتابة مؤلفه «أصل الأنواع» وعقب الإعلان عن البحث المزدوج أمام جمعية لينيان مباشرة، أخذ داروين زوجته وأولاده بعيداً في أجازة قصيرة كي يتعافوا من صدمة وفاة الرضيع تشارلز، وفى غضون ثلاثين شهراً أصدر كتاباً موجزاً بالغ الجدل.

ضغط داروين وبشدة مخطوطةً طويلةً كان قد كتبها بالفعل، وبعد ذلك، ندم على فقدان الكثير من الأدلة العلمية الراسخة التي بذل جهداً مضنياً من أجل جمعها، وكان دائماً ما يعتبر كتاب «أصل الأنواع» «اختصاراً» قام به قسراً، وظل لعدة سنوات بعد ذلك يخطط لنشر المخطوطة الطويلة الأصلية التي كان خطاب والاس سبباً في توقف العمل فيها.

أطلق داروين على هذا الكتاب الأقل طولاً اسم «حجة طويلة» ويا لها من حجة! فنادراً ما تجد نصوصاً علمية محكمة الحبكة، زاخرة بالمعلومات الحقيقية، وثرية باللغة المجازية كهذا المؤلَّف، لقد ذاع الأسلوب الأدبي الدارويني لأمد طويل على أنه يشبه رواية «الآمال العظيمة» أو رواية «ميدليمارش» من حيث تعقُّد موضوعاته المتداخلة، وقدرته على التعامل مع العديد من الخيوط الفكرية المتواصلة في نفس الوقت، وبالكاد يمكن التجرؤ بالقول إنه ربما أحدث تحولاً في مسار الفكر العلمي، إلا أنه ــ وبشكل رائع ـ كان على مستوى الموقف وقدره، لقد كان صوته مؤثراً ومقنعاً وودوداً ومتواضعاً وحزيناً، كذلك، كان خياله يحلّق إلى ما وراء الحدود المادية لبيته وحديقته، متجاوزاً علله الموهنة وصحة أولاده الواهنة، وكان في قمة تصميمه وعزمه، كان يشك في كل شيء آمن به معاصروه عن الطبيعة الحية، مستدعياً صورة عن الأصول مجردة تماماً من جنة عدن، ومُحررةً من صورة «صانع الساعات» السماوي الذي خلق الكائنات الحية بحلمٍ لتعمير الأرض، كما تخلى عما أسماه جون هيرشل John Herschel «سر الأسرار» وأحل النقص والمصادفة محل رؤية بالي عن التكيف الكامل، وأعتقد أنه لا ينبغي النظر إلى الحيوانات والنباتات على أنها نتاج تصميم أو خَلق خاص، وصرح قائلاً في الصفحات الافتتاحية «إنني مقتنع كل الاقتناع بقابلية الأنواع للتغير».

كان الأكثر من هذا هو أن الفكر التدريجي كان الفكرة الرئيسة لداروين، فكل شيء حدث تدريجياً، تماماً مثلما زعم ليل Lyell، وكذلك فإن كل شيء كان مرتبطاً بنفس التفسير الواحد، وهو أن

الوقت والمصادفة والتكاثر ـ وكذلك الصراع ـ هي أمور التي تحكم الأرض، وكان هؤلاء الذين سعوا للبحث عن تفسير جديد تماماً لعالم الأحياء على يقين من أنهم لن يجدوا هذا التفسير إلا في كلماته، فلا أحد بعد ذلك يستطيع أن يرى الكائنات العضوية وبيئتها الطبيعية كما كان يراها قبل ذلك، كذلك، لا يستطيع أحد ألا يلاحظ كيف عكس علم الأحياء الذي أرساه داروين الشعب البريطاني بروحه التنافسية والتجارية والإنتاجية، أو لا يدرك أن انجذابه للقانون الطبيعي قد أسهم ـ بلا شك ـ في الاتجاه العام نحو العلمانية ودعم الادعاءات المعاصرة للعلم بضرورة النظر إلى العالم وفهمه بمنظور علمي خالص.

كما ظهر لداروين نوع آخر من السرد كثيراً ما ذكره النقاد، فقد كان داروين يكتب فيما اعتاد أن يكتب بنفس أسلوب كتابة السيرة الذاتية المُفضل الذي تطور لديه أثناء رحلة بيجل Beagle وأحياه في «مفكرة الأبحاث» وقد تحدث ابنه فرنسيس داروين بعد ذلك بفترة طويلة فقال: «إن هذا الأسلوب الممتع في الكتابة كان صفةً مميزة لوالده في بساطته ووضوحه وبُعده عن الادعاء... إن الطابع اللطيف والباعث على الطمأنينة لقرائه شيء واضح جلي، ولابد أن تلك الميزة هي التي كشفت ـ من ناحية ـ عن عذوبة شخصيته لكثير ممن لم يروه»[1]. وعلى الرغم من أن نظرياته قد تدخل على القارئ مشاعر الخوف والرعب، إلا أن أسلوبه كان دائماً ما يتسم باللين واللطف، الأمر الذي يخلق بدوره جواً من السحر بين المؤلف والقارئ، لقد ظهر

(1) فرنسيس داروين، حياة وخطابات تشارلز داروين، مكون من 3مجلدات، لندن، 1887، مجلد 1، ص 155.

داروين في كتابه كما كان يبدو في حياته، رجل علم يحظى باحترام الآخرين، على درجة كبيرة من اللطف والود والجدارة بثقة من حوله، كان الرجل لا يتحدث باستخفاف عن التساؤلات الخطيرة التي تجول بخاطره، كذلك كان داروين نصيراً للحس السليم، أميناً في ما يتوصل له من بيانات، ساخراً من «الحدس المحض» ويعتبر هذا الأسلوب الإنساني في الكتابة واحداً من أعظم المواهب التي كان يتمتع بها داروين، وهو الأمر الذي كان يجذب إليه القراء البريطانيين بشكل هائل حيث يرون في هذا الأسلوب مزيجاً من أفضل صفات تراثهم الأدبي العتيق والقيم المعاصرة التي سادت خلال العصر الفيكتوري، وقد ساعده ذلك جيداً خلال سنوات الجدل التي جاءت بعد ذلك، حيث هدَّأ ذلك من حدة العداء الشخصي وجعل نقاده ـ حتى أشدهم قسوةً وجفاءً ـ يُقرّ بأمانته ودقته في البحث.

كان كتاب «أصل الأنواع» ـ باعتباره نقاشا منطقياً ـ مُقسماً إلى جزأين غير متساويين، يحدد الجزء الأول ـ وهو أقصر الجزأين ـ الحقائق الجلية في الطبيعة، ويعتبر هذا الجزء هو الذي أدى من خلال عدة خطوات إلى عرض داروين لنظرية الانتقاء الطبيعي في الفصل الرابع، أما الجزء المتبقي من الكتاب فيتعرض إلى كيفية تفسير النظرية، أو إيضاحها لمجالات رئيسية من علم الأحياء، مثل: علم الأجنة، وعلم التصنيف وعلم الإحاثة (وهو علم يبحث في أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السالفة كما تمثلها المتحجرات أو المستحاثات الحيوانية والنباتية) والتوزيع الجغرافي.

أما خاتمة الكتاب فجاءت مثيرةً تدعو القراء إلى النظر في وجهة نظره دون تحيز، وعلى غير العادة بالنسبة للكتب العلمية، قدم داروين كذلك مناقشةً صريحةً للعديد من العقبات التي من الممكن أن تصادف القارئ وذلك في فصل أطلق عليه اسم «صعوبات حول النظرية» كذلك، اعترف داروين بأن: «بعض هذه العقبات على درجة كبيرة من الخطورة لدرجة أنني حتى اليوم لا أستطيع أن أعبر عنها دون أن أشعر بالتردد، لقد شعرت بصعوبة وصلت لدرجة الشعور بالدهشة الشديدة من شدة التردد في بَسْط مبدأ الانتقاء الطبيعي إلى كل هذا الطول الهائل»[1].

تم توليف تلك الفكرة بعناية كبيرة، فلم يكن الانتقاء الطبيعي بالأمر البديهي في الطبيعة ولا بالنظرية التي يمكن أن يقول عنها الشخص «أنظر هنا فيراها» كذلك، لم تكن لدى داروين التجربة الحاسمة التي تدل بشكلٍ نهائي على التطور بطريقة عملية، وكذلك، لم تكن لديه المعادلات الرياضية التي تقيم حجته، فلم يُقدَّر لذلك كله أن يرى شمس الواقع إلا بعد مرور قرن من الزمان؛ كان كل شيء ورد في كتابه يحتاج إلى إعمال خيال القارئ، اعتمد داروين شأنه شأن ليل في كتابه «مبادئ الجيولوجيا» على القياس بين ما هو معروف وما هو غير معروف، أي إنه اعتمد على الاحتمالات، كذلك، استعمل داروين كلمات الإقناع، واستحضار إعادة التصور، إلا أن واقعةً تلو

(1) تشارلز داروين (1859)، حول أصل الأنواع، نسخة طبق الأصل من الطبعة الأولى يقدم لها ارنست ماير، كيمبريدج، ولاية ماساتشوتس ، مطبعة جامعة هارفارد، 1959، ص (171، 188).

الأخرى كانت تثبت تعذر تفسيرها تماماً وفقاً لنظرية الأفعال المستقلة لعملية الخلق.

جاءت فكرة التغير التام للكائنات الحية أولاً، فكل خنزير أو بقرة ونصل كل ورقة من نبات الذرة ـ كما وصفها ـ كانت بطريقة أو بأخرى متغيرةً بشكل طفيف، أي إنه لا يوجد نباتتان أو حيوانان متطابقي الشبه، وكان المزارعون والبستانيون يستفيدون من هذا التغيير الطفيف بشكل فردي لتحسين نطاق هائل من المخزون الزراعي، وهو ما لقي القبول لدى معظم قراءه، حيث تعتمد الثروة الزراعية والبستانية الواسعة الخاصة بالأمة على هذه الأنشطة بالضبط، كما أنّ لدى الكثير من الرجال والنساء الخبرة المباشرة للتعامل مع الحيوانات والنباتات المألوفة التي تحدث عنها، وهي: الكلاب والكشمش (عنب الثعلب) والماشية، وزهور الحدائق، وأضاف قائلاً: «إن المربين اعتادوا على التحدث عن نظام الحيوانات وكأنه شيء طيع تماماً يمكنهم تشكيله كما يشاؤون»، كما استشهد بقول السير جون سيبرايت الذي ادعى بخصوص الحمام «أن بإمكانه أن ينتج أي نوع من الريش في غضون ثلاث سنوات، إلا أن الأمر سيستغرق منه ست سنوات كي يتمكن من الحصول على الرأس والمنقار»[1].

والمشكلة الأكبر في معرض هذا الحديث، والتي أمسك بها النقاد بعد ذلك، هي أن داروين لم تكن لديه معرفةٌ بالطريقة التي تنشأ من خلالها الأنواع المختلفة، فقد قام بكتابة مؤلَّفه «أصل الأنواع» قبل

(1) أصل الأنواع، طبعة 1895، ص 31.

وضع علم الوراثة الحديث بفترة طويلة، والشيء الوحيد الذي تمكن من فعله هو أنه أظهر بالبرهان أن هذه التغيرات تحدث في الكائنات الحية الأليفة بلا أدنى جدل، لذلك، جاءت الصفحات الأولى من المؤلف حافلةً بالأمثلة المأخوذة من فروع التاريخ الطبيعي كافة، بإسهابٍ حقيقي لاحظه النقاد، كذلك، أضاف داروين إلى هذا وصفاً مماثلاً للتنوع في الحيوانات والنباتات البرية، وأُخذت كافة ملاحظاته على الأجزاء الداخلية للبرنقيلات، وخطوط الحمار، وأزهار الربيع وأزهار الربيع الأوروبية الآسيوية وضعها الطبيعي، وقد وصف ذلك الفصل بشكل خاص بقوله «فصل قصير وممل»[1].

تأتي بعد ذلك النقطة الرئيسة الحقيقة، يتوالد نسل كثير، بينما يموج عالم الأحياء بمنافسة مهلكةٍ ودمويةٍ فظيعة، وبنفس القوى الطبيعية الكامنة في الأسنان والمخالب، والتي وصفها تينيسون في قصيدته «للذكرى» فكتب داروين قائلاً: «أيُّ حربٍ تدور بين حشرة وأخرى ـ بين الحشرات والقواقع، وبين الحيوانات الأخرى مع الطيور والحيوانات المفترسة ـ الكل يصارع من أجل التزايد، والكل يتغذى على بعضه البعض أو على الأشجار أو بذورها ونبتاتها، أو على نباتات أخرى كست سطح الأرض أولاً وبالتالي أوقفت نمو الأشجار»[2].

إذاً، فالتناغم الذي خلقه الإله ما هو إلا وهم وحيث إن داروين لم يكن واثقاً من أن هناك من سيصدقه، فقد قدم داروين وفرةً من

(1) المراسلات، 1985، مجلد 7، ص 274.
(2) أصل الأنواع، طبعة 1859، ص 75.

الأمثلة، فالموارد المحدودة والأماكن المحدودة في الطبيعة، والخصوبة الطبيعية المستمرة هي ما تشعل معركةً من أجل البقاء.

كانت هذه هي المرحلة التي قدم فيها داروين نظرية الانتقاء الطبيعي، وباسترجاع أقدم وأقوى مجاز بحثه في «مدونات التطور بالتطافر» التي كتبها في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أعلن داروين أن ثَمَّ تشابهاً هاماً بين ما يحدث في فناء المزرعة والحديقة وما يقع في العالَم الطبيعي، وكما يستطيع الجنس البشري أن يُشكل ويُكيف الأنواع المستأنسة حتى تتلاءم مع الاحتياجات والميول المرحلية، فإن الطبيعة تستطيع وبنفس الطريقة أن تنتخب الأنواع الأفضل تكيفاً، فتصبح هذه الأنواع المنتخبة للبقاء أصل الجيل التالي.

«ربما يقال إن الانتقاء الطبيعي هو تمحيص يومي متواصل، في كل مكان من العالم، تجد كل الأنواع ـ حتى أصغرها ـ ترفض العناصر الرديئة منها، وتحافظ على العناصر الجيدة وتضيفها إليها، وتظل تعمل بهدوء وجمود ـ متى سنحت الفرصة وأينما كانت-على تحسين كل كائن عضوي فيما يتعلق بظروف حياتها العضوية وغير العضوية»[1]

وبالإضافة إلى ذلك، أقر داروين بعد أن أمعن التفكير بالمشكلات التي يمكن أن تتسبب فيها هذه اللغة التصويرية، فكثيراً ما نجده يجسد الانتقاء الطبيعي في مؤلفه «أصل الأنواع» وفي الوقت الذي كان فيه ذلك أمراً لا مفر منه في المعنى العام، كان داروين كثيراً ما

(1) نفس الكتاب، ص 84.

يعطي انطباعاً بأن الانتقاء الطبيعي عامل فاعل، ووصل الأمر مع البعض إلى حد الاعتقاد بأن الانتقاء الطبيعي ربما يكون هو الإله، يظنه بستانياً إلهياً في السماء، فهو الذي يختار الأشكال المختلفة التي قُدر لها النجاح، بيد أن داروين عاد بعد مرور سنوات ليقر بأن ذلك لم يكن مقصده، وأنه كان يتعين عليه استخدام تعبير أكثر حيادية مثل «الحفظ الطبيعي». لقد حدث الالتباس نفسه حين استخدم اصطلاح «التكيُّف»، الذي كان يلمح لوجود نوع ما من الاستراتيجية الهادفة لدى الحيوانات والنباتات، وهو المعنى المناقض تماماً لما كان يقصده، لذا، فقد استخدم فيما بعد اصطلاح «الحيلة» كحلٍ جزئي، وقد عانى داروين مراراً وتكراراً مع المفردات التي كان يوظفها، فاللغة المتاحة لديه هي لغة «ميلتون Milton » «وشكسبير Shakespeare» تلك اللغة المصبوغة بالغائية والغرض، وليست لغة الاصطلاحات الموضوعية المحايدة التي يتطلبها العلم.

لم يكن داروين قادراً حتى على التحدث عن «التطور» على هذا النحو، لأن هذا الاصطلاح كان يُستخدم غالباً في ذلك الوقت لتوضيح ما يحدث للتركيبات الخفية للأجنة، إلا أن الجدل الذي تولد عن نشر مؤلفه هو الذي أعطى هذا الاصطلاح معناه الحديث، كذلك، أشار داروين في كتابه «أصل الأنواع» وبصفة عامة إلى «السلالة المُعدّلة» وبالإضافة إلى ذلك، لم يستخدم داروين في البداية ما أصبح بعد أشْهَر عبارة مُطْلَقة وهي «البقاء للأصلح» والتي صاغها هيربرت سبنسر بعد ذلك عام 1864، ثم جاء «والاس» بعد ذلك ليقترح على

داروين استبدال هذا الاصطلاح بـ «الانتقاء الطبيعي» ومن الممكن أن تقود كل هذه الالتباسات اللفظية القراء إلى اتجاهات لم يكن في مقصد داروين، وكذلك، فإنه لا يتضح من مخطوطات داروين الباقية مدى إدراكه للنطاق الكامل لمثل هذه الصعوبات.

ظهر في أعقاب الانتقاء الطبيعي مفهوم آخر، وهو فكرة جديدة أسماها «مبدأ الاختلاف» وقد جاء هذا المبدأ بشكلٍ سريع بحيث يصعب توصيفه، إذ كان داروين يقول بأنه من المفيد دائماً للكائنات الحية أن تتنوع، ثم استطرد: «كلما ازداد تنوع سلالات أحد الأنواع في التركيب والتكوين والعادات، مكنها ذلك بشكل أفضل من الاستيلاء على العديد من الأماكن المتنوعة بشكل واسع في نظام الطبيعة، وهكذا تجعلها قادرةً على التزايد في أعدادها»[1]. كما أرغمت المنافسة على نفس الأماكن في الطبيعة (البيئات الملائمة) الحيوانات والنباتات على التخصص الذي أدى بدوره إلى تحفيز تعدد الأماكن ورفع كفاءة استخدام الموارد، وقد شبه داروين ـ في عبارة قاسية باعثة على القلق ـ الحيوانات والنباتات الفردية بأوتاد من الصلب تشق طريقها بشدة لا تعرف اللين في وجه الطبيعة اللين الرقيق، وهنا تكمن جذور بعض أشد المبادئ الاقتصادية والاجتماعية التي تشكلت نتاجاً لكتاباته، حيث حطم داروين كافة الصور السابقة عن التناغم البسيط، وصار الحافز الدافع إلى تحقيق النجاح ـ في عالمه ـ قاسياً، فلا مفر أمام الأفراد إلا القتل إذا كانت تحدوهم الرغبة في البقاء.

(1) نفس الكتاب، ص112.

قدم داروين في كتابه واحدةً من أقوى وأبقى صور المجاز التي استخدمها في عمله في محاولةٍ منه لتفسير مبدأ التنوع، حيث صور تاريخ الكائنات الحية بشجرة، ممثِّلا الأشكال السالفة البائدة بالجذور والجذع، وكل مجموعة من المجموعات الرئيسية من الكائنات الحية بأحد الأفرع، وجميع سواد الأنواع الموجودة حالياً بالأوراق الخضراء والبراعم، وهكذا صورت شجرة تطورية سلسة الامتداد لتربط بين الطبيعة والتاريخ في وحدة واحدة حية لا تتجزأ، تمتد على مدى العصور، وقد قال عنها داروين «إنها شجرة الحياة العظيمة التي تملأ قشرة الأرض بالأغصان الميتة والمكسورة، وتغطي سطح الأرض بأغصانها دائمة الجمال والتفرع والنُضرة» لقد أصبحت قدرته على تخيل تطور الحياة على هذا النحو مرادفًا لفهمه لها تقريباً، حيث أوضح مقصده عن طريق رسم بياني ـ هو الوحيد بين دفتي الكتاب ـ أسماه «أمراً يبدو غريباً لكنه على درجة من الضرورة لعرض طبيعة الروابط شديدة التعقيد بين الحيوانات السالفة والباقية» أظهر ذلك كيف أمكن لعدد من الأشكال السالفة أن تتنوع عبر الزمن، بعضها انقرض وبعضها الآخر أخرج الجيل التالي، وتدل الخطوط المنقطة تماماً بالكاد على الصور الجذابة للأشجار التي سوف تتدفق قريباً من أقلام علماء الطبيعة، لقد استبدل داروين ـ من خلال توظيف أعمق مستوى رمزي مُرضٍ ـ الرمز القديم لشجرة المعرفة «شجرة الحياة» بشيء مماثل، فقد كانت شجرته تمثل الزمن، التاريخ، المعرفة، الحياة، لكنها لم تكن أبداً لتمثل الإله.

بعد أن فرغ داروين من وضع جوهر نظريته، تناول داروين في كتابه ـ باستفاضة ـ نطاقاً واسعاً من الموضوعات البيولوجية، وأصبح علم الأجنة مفهوماً: «ازداد الاهتمام كثيراً بدراسة علم الأجنة، وبهذا يمكننا النظر إلى الجنين كصورة غير واضحة بشكل أو بآخر للشكل العام للأبوين في كل صنف رئيس من أصناف الحيوانات». كان داروين فخوراً بهذا الجزء من المناقشة كما كان حريصاً على التأكد من أنه قد فهمه الفهم الصحيح، لذا فقد طلب من صديقه الجديد «توماس هنري هكسلي Thomas Henry Huxley 1825 ـ 1895» أن يقرأ هذا الفصل قبل نشره، وقد أخبر داروين هوكر عند مناقشتهما لنفس الفصل قائلاً: «يبدو لي أن الحقائق تظهر شديدة التأييد لقابلية الأنواع للتحول»[1] كذلك، كتب داروين عن توقعه بأن علم الإحاثة، وعلم التشريح المقارن، وعلم التصنيف ستشهد تحولاً في مسارها كذلك، وقال إن الروابط التشريحية وتنظيم المجموعات التي يبحث عنها علماء التصنيف، لم تكن أفكاراً مجردة ولا إظهاراً مادياً لتخطيطٍ إلهيٍ وضعه الخالق على غرار ما ارتآه مشاهير علماء الطبيعة، أمثال: «لويس أجاسيز Louis Agassiz » أو «ريتشارد أوين Richard Owen» بل إن أوجه التشابه نتجت عن روابط دم خالصة النسب، وأوضح داروين أن الأعضاء اللاوظيفية (مثل الزائدة الدودية) في الإنسان ما هي إلا بقايا تشريحية بقت مع الزمن، وبالنسبة لداروين، لم يكن من المحتمل أن يقوم مصمم إلهي بخلق مثل هذه الخصائص عديمة الهدف والفائدة عمداً.

(1) مراسلات، 1985، مجلد 7، ص 265.

يمكن بنفس الطريقة شرح الأنماط، والعلاقات الجغرافيا التي تبعتها الحيوانات والنباتات عبر العالم على الأسس القائمة بأن غالبية الأنواع تنتشر وتتغير، برزت شخصية عالِم الطبيعة العملي وتحدثت بصراحة، فقد كان داروين هو عالِم البرنقيلات، وعاشق الحمام، ومُجري التجارب على النبات، وهو ذلك الشخص المولع بالجمع أثناء رحلة بيجل، وهو بعد كل ذلك الرحالة، ها هو ذا يقترب أخيراً من تحقيق هدفه، وقد أكد داروين أن جزءاً كبيراً من قيمة نظريته يكمن في الطريقة التي أعطت التفسير للعديد من الجوانب المختلفة للعالَم الطبيعي ووحدت بينها.

كان أهم الفصول التي احتواها الكتاب بين دفتيه من وجهة نظر الكثيرين هو ذلك الفصل الذي تعرض فيه داروين للصعوبات، فقد كان إدراج هذا الفصل خطوةً ذكية؛ لأن داروين ناقش فيه العديد من المشكلات التي يمكن أن تخطر ببال القارئ مباشرةً مثل: غياب المراحل المتوسطة في سجل الحفريات، أو الآليات غير المعروفة التي قد تسمح بوراثة الخصائص العقلية مثل: الغرائز وصعوبة تصور النشوء التدريجي للأعضاء المعقدة كالعين، لقد أثارت هذه المشكلات قلق داروين نفسه بشكلٍ لا حدّ له، فأسر لصديقه المقرب عالم النبات الأمريكي «آسا جراي Asa Gray » في عام 1860، بأن «العين تُصيبني بارتجاف من يشعر بالبرد حتى يومنا هذا»[1].

(1) مراسلات، 1985، مجلد 8، ص 75.

كان غياب المراحل المتوسطة في سجل الحفريات ـ على سبيل المثال ـ يمثل لغزاً حقيقياً لم يتسن لأحد تفسيره إلا من خلال ما يطلق عليه الفلاسفة «الجدل السلبي» فادعى أن مثل هذه الكائنات الحية كانت شديدة الندرة، وسريعة الزوال، وأن الحفظ الجيولوجي كان نادراً وعارضاً للغاية لدرجة كان من غير المحتمل معه إيجاد عينات لمثل هذه الكائنات، وكذلك، قال داروين إن عدم وجود هذه الكائنات لا يمكن أن يوفّر السبب المنطقي لإسقاط نظريته، وكما حدث، تبين أنه كان مُحقاً في ظنه هذا حيث يظل العثور على الروابط المفقودة محدوداً للغاية حتى مع اكتشاف حفريات مثل «الأركيوبتركس Archaeopteryx» وهو من الزواحف الشبيهة بالطيور، في الأحجار الجيرية بمنطقة سولنهوفن في ألمانيا والمُعترف به الآن على أنه أحد الحفريات الوسيطة الحقيقية.

وقد لقي هذا الفصل الخاص بالصعوبات إعجاب النقاد لأمانته، وكان فصلاً شديد الأهمية، حيث اختار داروين مبدئياً أن يتحدث فقط عن الصعوبات التي يمكنه أن يجيب عنها وإن كان ذلك مؤقتاً، إذ كانت جميع الصعوبات ذات طبيعة بيولوجية وقد توقع داروين سيلاً من التحديات الحقيقية، وأعد إجابات عليها على الفور.

حذف داروين ـ عامداً ـ الموضوعين اللذين يخطران على بال كل شخص، فقد تجنب أي نقاش عما قد تشير إليه النظرية التطورية عن أصول البشر، كذلك، نحى داروين جانباً أي جدل حول الوجود الإلهي في العالم الطبيعي، فقد كان لا يزال يذكر الجدل المرير الذي أُثير

حول كتاب «آثار التاريخ الطبيعي للخلق» وبغض النظر عن مدى جدية وعناية تعامله مع قضايا التطور، فإنه كان يعلم أن أي شيء سيجود به، لامناص من أن يكون فتيلاً يشعل جدلاً شديداً، ولذلك، لم يتطرق داروين على الإطلاق لموضوع أصول الإنسان في هذا الكتاب، على الرغم من أنه أشار بالفعل في العديد من المواقف إلى الجنس البشري كنموذج لتفاصيل بيولوجية محددة، ورغبةً منه في عدم الظهور بمظهر الثوري الهائج، أو عدم الهجوم العلني على العقائد القوية لدى أهل الإيمان، فقد عقّب في خاتمة الكتاب أنه «سوف يسلط الضوء على أصل الإنسان وتاريخه» إذا ما لاقت آراؤه القبول[1].

تجنب داروين ـ لغرض في نفسه ـ الحديث كذلك عن الأصل الأول للحياة، فلم يكن لديه أيّ تاريخٍ منهجيٍ منظم للبدايات ليقدمه، كذلك لم تكن لديه الأصول التي ينطلق منها، أو الشرارة الإبداعية، و قد ذكر في نهاية كتابه الاحتمال القوي بأن تكون كافة الكائنات الحية السالفة قد نشأت في شكلٍ أولي واحد، بل وذهب إلى الاعتقاد الشخصي بأن هذه الأصول القديمة قد ضاعت مع طول الوقت وبالتالي لا يمكن استعادتها، وكان داروين يتحدث ـ عندما يحتاج لأن يتحدث ـ عن الخالق بحذر؛ لأنه كان يعي أن كتابه ربما يُوصف بالكتاب المخرب، وفي الوقت ذاته، كان داروين حريصاً على ألا يدع للخالق أيّ دورٍ فعال في العمليات البيولوجية المتلاحقة، ذكر داروين في الطبعة الأولى لكتاب «أصل الأنواع» أصل هذا الشكل الأولي الواحد كما لو كان عملية

(1) أصل الأنواع، طبعة 1859، ص 488.

طبيعية بحتة، ولكنه استخدم في الطبعة الثانية من الكتاب مصطلحات دينية أكثر وضوحاً، كان من بينها تعليق مجهول المصدر، وصل إليه في الواقع من خطاب للأب تشارلز كينجسلي Charles Kingsley، يقول بأنه كان من الممكن تصور خالق يسمح للأنواع أن تصنع نفسها، وأن الأشكال العضوية الأولي قد اكتسبت الحياة من «روح الخالق»[1]. كان من الواضح أن داروين لم يكن يتمنى أن يُنظر إليه على أنه مُلحد، لقد رفض نص داروين تقديم أي نظرية مطلقة عن أصول الأنواع في كتاب يدعي عنوانه أنه يتناول قضية أصل الأنواع.

وبنهاية الكتاب، كان داروين قد قدم واحدةً من أقوى الاقتراحات المؤثرة في هذا القرن، ورغم أنه لم يسعَ في الطبعة الأولى إلى مقارنة عمله مباشرة بالأعمال التي سبقته، إلا أن نظريته كانت ـ بلا شك ـ على درجة من التميز، فقد اختلف داروين عن «لامارك Lamarck» وَجَدّه «إراسموس داروين Erasmus Darwin» المؤمن بفكرة التطور، وكان الاختلاف أن داروين قد انتحى منحى بعيداً عن أي من مذاهب التطور الضروري، أو الصراع الداخلي من أجل الوصول للكمال، وفي الوقت الذي حرص فيه داروين ـ بحذر ـ على إيجاد حيز في مخططه لإحداث بعض التأثير المباشر للبيئة على الكائنات الحية ـ وراثة الصفات المكتسبة التي كان هناك افتراض شائع بأنها الميزة الرئيسية لنظام لامارك ـ فإن الفارق الرئيسي بينهما هو أن داروين لم يدع لكائناته الحية أي هدف مستقبلي، ولا غائية، ولا قوة إلهية تدفعها

(1) أصل الأنواع، طبعة 1860، ص 484.

للأمام، كذلك لم يدع لها أيّ جهدٍ داخلي، أو إرادة قد تدفع بالتغييرات التكيفية في اتجاهات محددة، فقد كان رأي داروين أن الكائنات الحية تغيرت بطريقة عشوائية، فقد يكون هناك كائن حي جيّد التكيف رغم شدة بساطته، لذا، فالحشرة تشبه تماماً في تكيفها الرائع ذلك التكيف الذي ينعم به الإنسان.

كان داروين على يقين بأنه يختلف عن «روبرت تشامبرز Robert Chambers» ذلك المؤلف المجهول لكتاب «آثار التاريخ الطبيعي للخلق» في تدعيم معلوماته وإحكام تنظيم نظرية التغير وحسن تطويرها، وقراره بتضييق نطاق الكتاب على مشكلة واحدة بعينها وعدم تناول المسائل الكبرى الخاصة بتطور الكون، أو الشرارات الأولى للحياة أو مستقبل العقل البشري، وربما جعل ذلك كتابه باعثاً على الملل مقارنة بكتاب «آثار التاريخ الطبيعي للخلق» إلا أن الكتاب ـ في المقابل ـ منحه مكانةً أكثر رقياً في أوساط الدوائر العلمية؛ كذلك، اختلف داروين ـ على نحو واضح ـ مع تشامبرز بوضع اسمه على النص، فقد صدر كتاب «أصل الأنواع» وهو يحمل اسم الكاتب على غلافه، كاتب قائم كخبير معتمد في هذا المجال من ذوي المكانة الفكرية أوضحتها الحروف الأولى من درجته العلمية التي حصل عليها من جامعة كيمبريدج وعضويته للجمعيات العلمية، كما ذهبت نفس العوامل إلى إقامة الفارق الاجتماعي والتعليمي بين كلٍ من داروين ووالاس.

لا يمكن أن نُسقط ثِقل الفكر الذي كان يكمن وراء كل كلمة والاستراتيجيات المتعقلة، والاستعارات القوية الدالة على التطور

بالتحول، والتفاصيل المحكمة، وسعة الرؤية، ولا شك أن الكتاب كان هو رائعة داروين على الرغم من أنه أعرب بعد ذلك أنه قد تسرع في نشر كتاب «أصل الأنواع»، الذي لم يكن سوى مجرد خلاصة، فالأدلة مختصرة وغير كافية، والحواشي السفلية والمصادر محذوفة.

وقد أعلن داروين وسط وهج من الحماس في الصفحات الختامية من الكتاب «عندما تعي العقول الآراء التي تضمنها هذا الكتاب بين دفتيه عن أصل الأنواع أو عندما تُقر الأذهان بالآراء المشابهة، يمكننا حينها أن نتوقع ـ ولو وسط مناخ من الغموض ـ وقوع ثورة هامة في التاريخ الطبيعي، إنني أنظر إلى المستقبل بثقة وإلى الشباب الصاعد من علماء الطبيعة الذين ستساعدهم الأيام على دراسة جانبي المسألة بلا تحيز» وأيضاً:

«عندما نتوقف عن النظر إلى الكائن العضوي كشخصٍ بدائي ينظر إلى سفينة، كما لو كان شيئاً يفوق آفاق إدراكه، وعندما ننظر إلى كل نتاج للطبيعة على أنه شيء له تاريخ، وعندما نتأمل في كل تركيب وغريزة معقدة على أنها خلاصة وسائل كثيرة، كل منها نافع لمن يملكها، بنفس الطريقة التي ننظر بها إلى أيّ اختراع ميكانيكي على أنه خلاصة للعمل والخبرة والعقل، وحتى أخطاء العاملين، إذا درسنا كل كائن عضوي فلنا أن نتخيل إلى أي مدى ستصير دراسة التاريخ الطبيعي ممتعة، تلك كلماتي من واقع خبرتي!»[1]

(1) أصل الأنواع، طبعة 1859، ص 6 - 485.

وقد وصلت كل آماله إلى مرحلة صعود تدريجي، وانشغل عقله بمكان واحد ذي جاذبية خاصة كان قد زاره مع «إيما» أثناء تجوله في الريف حول داون هاوس.

من الشيق أن نتأمل إحدى ضفتي النهر حيث تتشابك الأشجار، وتكسوها مختلف أنواع النباتات، وتتغنى الطيور على الشجيرات، وحشرات متنوعة تتنقل في المكان، وديدان تزحف على الأرض الرطبة، كذلك، إنه من الممتع أن تتأمل هذه الأشكال التي صُنعت بدقةٍ، والتي تختلف بشكل كبير عن بعضها معتمدةً على بعضها البعض على نحوٍ غايةٍ في التعقيد، فقد كانت جميعها نتاج القوانين السارية في الطبيعة من حولنا... تتجلى عظمة هذا المنظر من مناظر الحياة بقواها العديدة سواء كانت منحت لها في أشكال متعددة أو في شكل واحد، وإذا كان هذا الكوكب يدور طبقاً لقانون الجاذبية الثابت، منبثقة من بداية بسيطة للغاية فإن هناك أشكالاً لا نهائيةً تطورت وما زالت آخذة في التطور في أروع وأحسن صورة[1].

لعل داروين لم يكن يتوقع أن عمله سيبدو في أعين الآخرين على هذا النحو من الصرامة والدرامية والخطورة والجمال الفائق.

لكن يا تُرى من سيتولى نشر مثل هذا الكتاب؟ في الشهور الأولى من عام 1859، سأل داروين ليل بتردد إذا ما كان من المحتمل أن تكون لدى «جون موراي John Murray» الرغبة والاهتمام بذلك، كان جون موراي هو نفسه الذي تولى نشر كُتب ليل وإصدار الطبعة

(1) أصل الأنواع، طبعة 1859، ص 490.

الثانية من كتاب داروين «مفكرة الأبحاث» عام 1845، كان موراي اختياراً مثالياً لأسباب عديدة: فقد جمعت بينه وبين داروين علاقة عمل في نشر كتاب «مفكرة الأبحاث» كما كان موراي مهتماً بالعلم بخاصة مجالي الجيولوجيا والكيمياء، كذلك، كان موراي معتاداً تماماً على إطلاق حركات ذكية للنشر مثل «البيت Home » و «مكتبة المستعمرة Colonial Library » وهي سلسلة من الأعمال التثقيفية الموجهة إلى الطبقة المتوسطة، وسلسلة «دلائل السائحين Handbooks» الشهيرة، وهي أول دلائل للسفر تقدم في العصر الفيكتوري لقضاء العطلات وهي تسبق دلائل باديكر Baedekers بسنوات قليلة.

علاوة على ذلك، صار موراي وبسرعةٍ واحداً من أهم الناشرين العلميين في العصر الفيكتوري، وكان يفتح أبواب دور نشره الواقعة في شارع ألبمرل في قلب لندن «مدينة الأدب» أمام كل الكتّاب على اختلاف مشاربهم، وقد عرض موراي على داروين عقداً قبله بكل ترحيب، وكان هذا بداية علاقة استمرت طيلة حياته.

ومع ذلك، كانت الكتابة المستمرة توهن صحة داروين تدريجياً، فاشتكى ذات مرة قائلاً: «يا إلهي كم أنا مشتاق إلى أن أُعفى من هذا الداء في معدتي لنوبة طويلة واحدة على الأقل». وكان يبث أنينه إلى هوكر قائلاً: «إني أصير وهناً كالطفل، مريضاً كسيراً بشكل يبعث على الشفقة». قضى داروين صيف عام 1859 في مكابدة المراجعة، وعادت الشكوك تساوره بشدة حول أسلوب كتابته، فكان يفكر فيما بعد قائلاً: «يبدو أن ثمة مشكلة ما في عقلي تجعلني أضع العبارة والاقتراح في

البداية بشكل خاطئ وغير لائق»[1]. وكانت إيما داروين Emma Darwin تمد له يد العون متى أمكنها ذلك، حيث قرأت كتاب «أصل الأنواع» كاملاً أثناء مرحلة تجربة الطباعة وحاولت بإخلاص أن تساعد زوجها في توصيل أفكاره بدقة إلى القراء، ولا دليل على أنها حاولت أن تقوم بدور الرقيب على نص زوجها، بل على العكس، فقد كانا يناقشان سوياً العبارات غير الملائمة في أوقات الليل حتى يتوصلا إلى صيغة تحمل كل ما كان يحاول أن يقوله بالفعل، وكانت تؤنبه لضعفه في استخدام الفواصل، كما قرأ ليل التجارب الطباعية للكتاب بينما كان مسافراً حول القارة في إجازته الصيفية.

عدّل داروين العنوان في اللحظة الأخيرة حسب توصية قدمها له موراي، فقد كان الاسم الأول الذي اقترحه داروين على درجة شديدة التعقيد، وهو «خلاصة مقالٍ عن أصل الأنواع والتنوع عبر الانتقاء الطبيعي». إلا أن موراي ـ بحسه السليم ـ اقترح أنه من الضروري حذف كلمات «خلاصة» و«مقال» و«تنوع» وأن كلمة «الانتقاء الطبيعي» يجب شرحها على أنها مصطلح غير مألوف بالنسبة للعامة من الناس، فكان العنوان المتفق عليه أقل ثقلاً: «أصل الأنواع بواسطة الانتقاء الطبيعي، أو الحفاظ على الأجناس المفضلة في الصراع من أجل الحياة».

كان داروين في حالة من الانشغال والإنهاك والخنوع، فكتب إلى «ويليام داروين فوكس William Darwin Fox» خطاباً يقول فيه: «لقد

(1) السيرة الذاتية، 1958، ص 137.

كلفني كتابي البغيض هذا... الكثير من العمل لدرجة أنني تقريباً أبغضه» وكان أحياناً ينفر من رؤية الطبيعة بالصورة التي تتطلبها نظريته عن الانتقاء الطبيعي، فصاح ذات مرة لهوكر متعجباً: «يا له من كتاب ذلك الذي يسطره أحد قساوسة الشيطان عن أعمال الطبيعة الخرقاء والمخربة والخاطئة والوضيعة والقاسية بشكل مروع»[1]، كذلك بث شكواه في سبتمبر عام 1859 قائلاً: «لقد حل بي القلق والتعب مؤخراً، ولقد ساورني الشك لشهور: هل كنت أضيع وقتي ومجهودي هباءً ؟».

سجل داروين بعد ذلك في مذكراته اليومية: «انتهت التجارب الطباعية» في الأول من أكتوبر عام 1859، وحسب أن العملية كلها قد استغرقت 13 شهراً وعشرة أيام من بدايتها إلى نهايتها، وفي الثاني من أكتوبر، غادر داروين داون هاوس متعباً، مريضاً، وسلك طريقه إلى إحدى مؤسسات العلاج بالماء في مدينة يلكلي Ilkley عند سفح مرتفعات يوركشاير، قال عن ذلك: «لقد استنفد العمل قواي وعليّ أن أرتاح... العلاج بالماء والراحة ـ ربما يجعلان مني إنساناً»[2].

تم نشر الكتاب في لندن في الرابع والعشرين من نوفمبر عام 1859، وكان داروين في مدينة يلكلي وقت النشر، ليعود إلى بيته بعد ذلك بأسبوعين.

(1) مراسلات، 1985، مجلد 6، ص 178.
(2) مراسلات، 1985، مجلد 7، ص 324، 328.